الفلسفة الوضعية: (عرض ودراسة)

د. محمد بحر محمد حسن
أستاذ العقيدة والمذاهب المشارك – جامعة الملك فيصل – المملكة العربية السعودية

Positivist philosophy: presentation and study

Dr. Mohammed Bahr Mohammed Hassan
Associate Professor of Creed and Doctrines, King Faisal University, Saudi Arabia

ملخص البحث:

يتناول هذا البحث ملامح الفلسفة الوضعية، مع استعراض لحال مؤسسها، وبيان الأصول والمنطلقات التي قام عليها، إضافة لما لحق هذه الفلسفة من تطور لاحقًا.

كما تسعى للكشف عن واحدةٍ من تلك الفلسفات الفاعلة في مجال نظرية المعرفة، والتي أثرت تأثيراً كبيراً في المجال المعرفي المعاصر، وتشكلت في ضوئها عقائد ومقولات شديدة الحضور والتأثير في حياتنا المعاصرة اليوم، أعني: "الفلسفة الوضعية"، وهي حركة فلسفية حسيَّة غالية، انبثقت من رحم الفلسفة الحسيَّة، تُنكر أن يكون للمعرفة الإنسانية مصدر غير الحس. وتؤكد على أن الفكر الإنساني لا يدرك إلا ظواهر الأشياء المحسوسة، وما بينها من علاقات فحسب، وتُغالي هذه الفلسفة في إنكار الغيب والميتافيزيقا، لذلك تعتبر فلسفة إلحادية.

الكلماتُ المفتاحية: الفلسفة، الوضعية، الحس، المادة، الميتافيزيقا.

Abstract:

This article aims to tackle the features of positivist philosophy, with a review of the status of its founder, foundational principles and the subsequent development of this philosophy. The study employs the descriptive analytical approach. The study also seeks to uncover one of those active philosophies in the field of epistemology. The philosophy has greatly influenced the contemporary field of knowledge, and in the light of which beliefs and statements have been formed, as being highly present and influential in our contemporary life today. It is a sensory philosophical movement, proceeded from the womb of sensual philosophy, denying that human knowledge has a source other than the sense. It emphasizes that human thought only perceives the phenomena of concrete things, and the relationships between them only. This philosophy exaggerates the denial of the unseen and metaphysics. Therefore, it is considered an atheist philosophy.

Keywords: Philosophy, positivism, sense, matter, metaphysics

المقدمة:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، الذي بعثَ رسلَه بالحقِّ ليكونوا حجةً على الناس يخرجونهم من الظُّلمات إلى النور المبين، والصلاةُ والسلام على أنبياءِ الهدى ومصابيح الدُّجى أجمعين، وعلى نبينا محمَّد- صلى الله عليه وسلم- أفضلَ صلاة وأتمَّ تسليم. أمّا بعد،

ظاهرة تبني الأفكار في أي ساحةٍ من ساحات المعرفة البشرية تعود إلى عوامل عدة، ولئن كان للمعرفة والعلم أثرٌ كبيرٌ في تحريك المشهد الفكري المعاصر فمن الوهم اعتقاد أنه يشكل الفاعل الوحيد أو حتى الأهم في المشهد، فلمنهجية التفكير والتأمل أثر أشد وأعمق من المكون المعلوماتي المجرد، فمنهجيات التفكير، وخيارات المرء في مجال "نظرية المعرفة" لها دور حاسم في تحديد هوية المرء الفكرية والثقافية بل والدينية. فمن هذه الخيارات تنشأ تحيزات الإنسان المعرفية، وفي ضوئها يتحرك المرء للاقتناع بفكرةٍ ما أو رفضها، وإغفال هذه القضية يُسبِّب مشكلةً كبيرةً في تفهم بواعث تبني كثير من الأفراد والجماعات لأفكار وتصورات قد تبدو للوهلة الأولى معارضة لمعان بدهية، أو أدلة واضحة. عندما يقول "سكوت تودScott Todd" مثلًا في سياق كلامه على مسألة دلالة الكون على وجود خالق له: (حتى لو كانت جميع المعطيات تشير إلى مصمم ذكي، فإن مثل هذه الفرضية يجب أن تكون مستبعدة من العلم؛ لأنها تمثل نظرة غير مادية)، فالإشكالية هنا ليس في تحقيق دلالة الكون على أن هنالك إله، وإنما الإشكال في اختيار هذا الرجل لنظرة طبيعية مادية تستبعد بذاتها إمكانية قبول مثل هذا الخيار. ومن هنا ندرك أن كثيرًا من الجدليات الكبيرة التي تحدث في مختلف المجالات المعرفية والفلسفية إنما هي في الحقيقة إفراز عن منظومات نظرية تنشأ عنها مقولات معينة. فإدارة الجدل في دائرة المقولات النهائية، والاقتصار على ذلك مظنة الغفلة عن المحركات الفاعلة الحقيقية التي حملت أصحاب تلك المقولات لتبني تلك الأفكار.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه يتناول أحد الفروع الفلسفية المهمة جدًا وهي مباحث "نظرية المعرفة" أو "الأبستمولوجيا" والتي تعد أبرز مباحث الفلسفة المعاصرة، بل تمثل البحث الفلسفي المعاصر كله تقريبًا، فلو أراد المرء تتبع المذاهب والأفكار وكيف تطورت في هذا الحقل فسيجد نفسه عمليًا يقوم بتتبع تاريخ الفلسفة الحديث كما ذكر زكي نجيب محمود(١).

مشكله البحث:

تكمن مشكله البحث في الأسئلة الاتية:

- ماهي أوجه قصور الفلسفة الوضعية، فيما يتعلق بوسائل المعرفة وأبعاد الوجود المادي؟

- رغم اختلاف فلاسفتها في بعض التفاصيل فهل هناك نقاط اشتراك بينهم؟
- هل الفلسفة الوضعية تختلف عن غيرها من الفلسفات في مجال نظرية المعرفة؟

فرضيات البحث:

أولاً: أن الفلسفة الوضعية تحصر المعرفة في المعرفة الحسية.

ثانياً: أنها تركز على البعد المادي للوجود.

ثالثاً: أنها تتصف بالقصور نتيجة لهذا الحصر.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى:

١- الكشف عن الفلسفة الوضعية باعتبارها إحدى الفلسفات الفاعلة في مجال نظرية المعرفة، والتي أثرت تأثيراً هائلاً في المجال المعرفي المعاصر، وتشكلت في ضوئها عقائد ومقولات شديدة الحضور والتأثير في حياتنا المعاصرة اليوم.

٢- التعريف بمؤسس الفلسفة الوضعية وأفكاره.

٣- بيان الأساس الذي قامت عليه الفلسفة الوضعية.

٤- عرض مراحل تطور الفلسفة الوضعية. وكيف أنها لا تعمل على تحليل الظواهر فحسب، فقد تشعبت إلى طرائق مختلفة، وطوائف متنوعة(٢)، ومن أشهر تياراتها وأكثرها انتشارًا وتأثيراً في الواقع: "تيار الوضعية المنطقية"، و"النزعة العلمية".

الدراسات السابقة:

هنالك العديد من الدراسات السابقة التي تناولت هذا الموضوع نذكر منها على سبيل المثال:

١- الفلسفة المعاصرة في أوربا، بوشنسكي، ترجمة: عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٣هـ. لكن الكتاب يركز على الفلسفة الوضعية في المرحلة المعاصرة، حلافا للبحث الذي ركز على المرحلة الحديثة.

٢- الفلسفة الوضعية عند أوغست كونت، إلهام محمد فتحي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر، العدد (٣٦). والدراسة تركز على الفلسفة الوضعية عند فيلسوف واحد هو اوجست كونت بينما تشمل الدراسة العديد من فلاسفة هذه المدرسة.

٣- نهاية الوضعية المنطقية، رودولف كارناب، ملحق ترجمة بيان فيينا، وداد الحاج، المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى، ٢٠٠١م. وهي أيضاً دراسة تركز على فيلسوف واحد.

منهج البحث:

تم استخدام المنهج الوصفي التحليلي في هذه الدراسة.

خطه البحث:

تتكون خطة البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

المقدمة وفيها أهمية البحث ومشكلته وفرضياته وأهدافه والدراسات السابقة ومنهج البحث وخطته.

التمهيد: وفيه التعريف بمصطلحات وعنوان البحث.

المبحث الأول: مؤسس الفلسفة الوضعية "أوجست كونت.

المبحث الثاني: أساس الفلسفة الوضعية "المدرسة الحسية".

المبحث الثالث: حقيقة الفلسفة الوضعية.

المبحث الرابع: تطور الفلسفة الوضعية.

الخاتمة: وفيها النتائج وأهم التوصيات.

التمهيد

أولاً: تعريف الفلسفة لغة واصطلاحاً.

أ – لغةً:

أصل كلمة فلسفة هو اختصارٌ لكلمتَين يونانيّتين، هما: فيلو، وتعني: حُبّ، وسوفيا: تعني الحِكمة؛ أي إنّ معنى الفلسفة هو حُبّ الحِكمة، وينسب بعض المؤرّخين هذا الاصطلاح إلى فيثاغورس، الذي أطلق على نفسه لقب فيلسوف، وأرجعهُ البعض إلى سقراط الذي وصف نفسه بالفيلسوف؛ رغبةً منهُ في تمييز نفسه عن السّوفسطائيين الذين يدّعون الحِكمة، ويرى آخرون أنّ مُصطلح فلسفة يعودُ إلى أفلاطون؛ حيث استخدمها في وصف سولون وسُقراط[٣].

ب– اصطلاحاً:

أما اصطلاحًا فهي دراسة ما يتعلّق بأمور، كالوجود، والمعرفة، والقِيَم، والعقل، واللغة، من خلال التفكر في هذه المسائل والنظر لها بمنظور فلسفي إدراك[٤].

إنّها دراسة المعنى، والمبادئ الكامنة وراء السلوك، والفكر، والمعرفة، والمهارات التي يشحذها هي القدرة على التحليل والتشكيك في الأصول، والتعبير عن الأشياء بوضوح.

ثانياً: تعريف الوضعية لغةً واصطلاحًا:

أ- تعريف الوضع لغةً:

(وَضَعَ) الواو والضاد والعين: أصل واحد يدل على الخفض للشيء وَحَطِّهِ. ووضعته بالأرض وضعاً، ووضعت المرأة ولدها.(٥)

ب- تعريف الوضع اصطلاحاً: هو مذهب فلسفي يرى أن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين.(٦)

ثالثاً: تعريف الفلسفة الوضعية اصطلاحاً:

ذكرت المراجع التي تكلمت عن الوضعية تعريفات كثيرة، من أهمها:

١. هي المعرفة الحقيقية في مجال العلوم الاجتماعية، كما في العلوم الطبيعية، مستمدة من التجربة الحسية، والمعالجات المنطقية والرياضية لمثل هذه البيانات؛ والتي تعتمد على الظواهر الطبيعية الحسية.(٧)

٢. هي الفلسفة التي اعتبرت أن وضع الأمور في عالم الواقع هو وحده مجال البحث الفلسفي.(٨)

٣. هي مذهب فلسفي يرى أن الفكر الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعية والمحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين.(٩)

خلاصة التعريفات:

أن الفلسفة الوضعية أو المذهب الوضعي مذهب فلسفي ملحد يرى أن المعرفة اليقينية

هي معرفة الظواهر التي تقوم على الوقائع التجريبية، ولا سيما تلك التي يظهرها العلم التجريبي، وينطوي المذهب على إنكار وجود معرفة تتجاوز التجربة الحسية، ولاسيما فيما يتعلق بما وراء المادة وأسباب وجودها.(١٠)

المبحث الأول: مؤسس الفلسفة الوضعية "أوجست كونت"

من هو "أوجست كونت"؟

"أوجست كونت "هو أحد أشهر الفلاسفة الفرنسيين، والذي عاش بين عامي "١٧٩٨م و١٨٥٧م". وقد وُلد في مدينة "مونبلييه" الفرنسية، ومع أنه نشأ في أُسرة نصرانية شديدة التعلق بالكاثوليكية، إلا أنه بادر وبشكل مبكر في حياته إلى نبذ الإيمان بمبادئ الدين، وارتد عن النصرانية، وذلك حين بلغ الرابعة عشرة من عمره.

وكان شديد المحبة في شبابه "لبنيامين فرانكلين" أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية، حتى بلغ الأمر به لتلقيبه بسقراط العصور الحديثة.

وقد كان كونت تلميذاً متميزًا في علوم الرياضيات، والتحق وهو بعمر السادسة عشرة بمدرسة الهندسة بباريس، لكنه لم يواصل دراسته فيها لظروف سياسية.

وقد عكف على دراسة كتب الفلسفة، معتمداً على قراءته الخاصة، وتأثر كثيرًا بأطروحات "هيوم" و"دي مستر" و"ديبونالد".

وقد كان له إنتاج غزير في المعرفة حيث نشر (أوجست كونت) عدداً من الكتب والدراسات عبر فيها عن تصوره لنهضة فرنسا وتخلصها من النظام الذي كان مسيطراً في العصور الوسطى وانتقالها إلى العصور الحديثة. ومن أهم أعماله" الفلسفة الوضعية"و"خطاب في الفلسفة الوضعية"و"نظام السياسة الوضعية".

كما كان (لأوجست كونت) عدد من المؤلفات والكتب التي فصل فيها نظراته الفلسفية، والتي أحدثت حراكًا فكريًا ساخنًا في زمانه وبعد وفاته، ومن أهم تلك المؤلفات ما يلي:

١. "مشروع الأعمال العلمية الضرورية لإعادة تنظيم المجتمع" والباعث له على تأليف هذا الكتاب أنه كان يرى أن الشرط الأول للنجاح هو إعادة وحدة الاعتقاد إلى العقول، كما كان الحال في العصر الوسيط، ولكن عن طريق العلم لا عن طريق الدين، فكتب هذا الكتاب والذي نُشر سنة "١٨٢٢م".

٢. "السياسة الواقعية" والذي نُشر سنة "١٨٢٤م"، أبان فيه كونت أن فلسفة القرن الثامن عشر القائمة على حرية الرأي وسلطة الشعب، فلسفة مفيدة في النقد والهدم، لكنها عقيمة في الإنشاء.

٣. "أقوال فلسفية في العلم والعلماء" والذي صدر في سنة "١٨٢٥م".

٤. "ملاحظات على السلطة الروحية الجديدة" وقد طبع في سنة "١٨٢٦م".

٥. "في مبادئ علم الهندسة ذي الأبعاد الثلاثة".

٦. "رسالة فلسفية في علم الفلك الشعبي".

وفي سنة "١٨١٩م" تعرّف (كونت) على الكاتب الفرنسي الشهير "سان سيمون" وهو من رواد المذهب الاشتراكي في القرن التاسع عشر، واتفقا على الاشتغال معاً بالعلم والسياسة، أما "سان سيمون" فقد كان شغوفاً بالسياسة وذا بصر نافذ فيها، وأما "أوجست كونت" فقد كان شغوفاً بالعلم، وغير مهتم بالأمور السياسية، واعتبر "كونت" صديقه "سان سيمون" بمثابة أستاذ له، فقد كان كاتباً له ومعاوناً حتى سنة "١٨٢٢م".

لكن وقع بينه وبين أستاذه خلاف بعد ذلك أدى لافتراقهما واشتغال كلٍ منهما في مجال اهتمامه، فانصرف كونت للكتابة والتأليف، وبدأ بتحرير موسوعة العلوم الوضعية، وإلقاء المحاضرات في هذا الشأن سنة "١٨٢٦م" فأقبل على الاستماع إليه جمهور من العلماء.

ومن اللافت للنظر أن أفكاره هذه أثارت زوبعة جدل واسعة في بلده فرنسا، لكنها حين تسربت إلى بريطانيا لاقت قبولًا ورواجًا كبيرًا كما أخبر أحد كبار الفلاسفة المعاصرين المتأثرين به وهو "جون ستيوارت ميل". "(١١).

وبعد أن ألقى ثلاث محاضرات انتابته أزمة عقلية، أدت إلى انقطاعه عن أبحاثه الفلسفية، فعُنِيَتْ بِهِ زَوجته، حتى عاد إليه إتزانه العقلي، فاستأنف محاضراته في سنة "١٨٢٩م".

ثمّ تعرض لأزمة عقلية أخرى كان من أسبابها هيامه بسيدة تعرَّف عليها سنة "١٨٤٤" وتوفيت بعد سنتين، فأخذ منها مثال الإنسانية، وكان يتوجه لها بالفكر والصلاة كل يوم، وكانت "شيطانه" الذي يحرّك هواجسه أثناء تحريره كتابه "مذهب في السياسة الوضعية".

ولم يطل به العهد بعد ذلك إذ وافته منيته سنة "١٨٥٧م". (١٢)

المبحث الثاني: أساس الفلسفة الوضعية "المدرسة الحسية"

موضوع نظرية المعرفة يُعد أحد الأبحاث المركزية في الفلسفة المعاصرة، بل هو في الحقيقة يمثل روحها وجسدها الأكبر، وهو يدور على جملة من التساؤلات الأساسية والمركزية، كالتساؤل عن: طبيعة المعرفة، أو إمكانياتها، أو حدودها، أو صدقيتها، ويمثل سؤال "مصدر المعرفة" واحدًا من أهم تلك التساؤلات التي تسعى نظرية المعرفة للإجابة عنها.

وقد تباينت الاتجاهات الفلسفية في تقديم جواباتها ما بين مدرسة عقلية، ونقدية وحدسية، وتعد "المدرسة الحسية" – والتي تزعم بأن مصدر المعرفة إنما ينبثق عن طريق التجربة الحسية – واحدة من أهم المدارس الفلسفة والتي انبثقت عنها تيارات متعددة، ومن أهم تلك التيارات، تيار "الفلسفة الوضعية".

وسميت هذه الفلسفة بالوضعية؛ لأنها تقصر المعرفة الإنسانية على تحليل وضع الأمور كما هي في عالم الواقع، وتنبذ كل ما عدا الأمور الحسية الواقعية.

فالفلسفة الوضعية كما سبق هي فلسفة حسية مغالية، فلا تؤمن إلا بما تثبته العلوم التجريبية، وزعمت لأجل ذلك أن الفكر الإنساني عاجز عن إدراك ما سوى الظواهر الحسية، والوقائع التي تثبتها التجربة، وما بينها من علاقات، أو قوانين. وأهملت لأجل ذلك كل بحثٍ في العلل والغايات.

وهدف الوضعيين هو مقارعة رجال الدين النصراني وإبطال مقالاتهم في الدين بالدين الوضعي الجديد الإنسانية. وقد جاء في الموسوعة العربية الميسرة أن الوضعية مذهب فلسفي يقيم المعرفة على نطاق الخبرة الحسية. وأما ما يتجاوز الخبرة الحسية فمعرفته مستحيلة[١٣].

وكان (هيوم) رائداً للمذهب الوضعي, وأوغست كونت داعيةً له. وكان (هيوم) الذي تشبّع بفكرة الوضعية يجادل لتصحيح مذهبه هذا ويثير شبهات سخيفة لتقوية الإلحاد وإنكار وجود الخالق فانكر ارتباط الأسباب بمسبباتها على الحقيقة واعتبر أنها فرضية عقلية غير حقيقية بدليل أن الأسباب لا تفعل شيئاً تجاه مسبباتها وسبب ذلك إنكاره قدرة الله تعالى وأنه هو المسبب الحقيقي في إظهار الأمور عند فعل أسبابها إذا أراد الله ذلك وقد تفعل الأسباب ولكن لا ترى المسببات إذا لم يشأ الله ذلك فليست الأسباب هي الفاعلة بنفسها، كما أنكر إرادة الإنسان في عمله بل هو يعمل كل ما يعمله آلياً دون إرادة مسبقة، وهو إنكار يدل على جهله فإن كل إنسان يحس في نفسه إرادة مسبقة للعمل الذي يريده سواء أكان فيه مصلحة أو مضرة، وقد يعمل الشخص العمل الذي فيه مضرة عاجلة لما يرجوه من المصلحة الآجلة فيه، فلو لم تكن له إرادة لما أقدم على ذلك. وله مزاعم كثيرة لا يدل عليها أي دليل لا من العقل ولا من النقل ولا من التجارب وإنما هي فلسفات خيالية.

وقد لخص جميل صليبا أهم ما تشتمل عليه الفلسفة الوضعية بقوله: (إن المعرفة الصحيحة هي المعرفة المبنيّة على الواقع والتجربة، وإن العلوم التجريبية هي التي تحقق المثل الأعلى لليقين، وإنّ الفكر البشري لا يستطيع أن يجتنب اللفظية والخطأ في العلم والفلسفة، إلا إذا اتصل بالتجربة، وأعرض عن كل قبلية، وأن الشيء في ذاته لا يدرك، وأن الفكر لا يستطيع أن يدرك إلّا العلاقات والقوانين)

ويمكن أن يُعرف المنهج الحسي: بأنه الاتجاه الفلسفي الذي يذهب إلى انحصار مصادر المعرفة الإنسانية في الحس ومعطياته، وأنه لا مصدر للمعرفة سواه، ويرى أن المعرفة الإنسانية كلها مستمدة في نهاية الأمر من الخبرة الحسية فحسب(١٤).

والحقيقة أن جذور المنهج الحسي تمتد إلى عصور قديمة في الفكر الإنساني، فقد ظهرت له تشكلات مبكرة في العصر اليوناني، ومن أقدم المدارس التي نقل عنها الأخذ بهذا المذهب "المدرسة الذرية"، التي ذهبت إلى أن الوجود كله ينحل إلى ذرات صغيرة لا تقبل الانقسام، وقد اتفق مؤسسو هذه المدرسة على أن الحواس تعد مصدر المعرفة الوحيد عند الإنسان، وأن كل معرفة لديه ترجع إلى الحس فقط. وانتشر هذا المنهج كثيراً في العهد اليوناني، وشاعت أفكاره ونظرياته، حتى اضطر أفلاطون وأرسطو أن يجتهدا اجتهادًا كبيرا في نقد رؤيته وتقويض أصوله(١٥).

وما زال المنهج الحسي يسير على نسق واحد عبر التاريخ الفلسفي الطويل، حتى بلغ عصر الفلسفة الحديثة، وفي هذا العصر شهد تطورًا كبيرًا في رؤيته وفي أدلته، وتحول إلى منظومة معرفية واسعة الانتشار وعميقة التأثير، ويُعد الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" أول من أفرد موضوع المعرفة ببحث فلسفي خاص،

وذلك في كتابه "مبحث في الفهم الإنساني"، وهو يُعدّ بذلك المؤسس الفعلي للبحث في نظرية المعرفة في عصر الفلسفة الحديثة، والمؤسس الفعلي أيضًا للمذهب الحسي في صورته الحديثة، وفي بيان ذلك يقول الفيلسوف وعالم الرياضيات الشهير "برتراند رسل": (وقد يعتبر لوك مؤسسًا للتجريبية، وهي النظرة القائلة بأن معرفتنا كلها -مع إمكان استثناء المنطق والرياضيات- مستمدة من التجربة)(١٦).

وقد قرر "لوك" في كتابه السابق أن المعرفة الإنسانية كلها ترجع إلى الإدراك الحسي فحسب، وأن العقل الإنساني عبارة عن صفحة بيضاء تملأ بما يأتي إليها عن طريق الحس، وفي تأسيسه لفكرة المذهب الحسي يقول: (فلنفترض إذن أن الذهن على حد قولنا صفحة بيضاء، خالية من جميع الحروف، وبدون أية أفكار، فكيف يحدث أن يملأ ؟! ومتى ينال بذلك المستودع الواسع؟! الذي تطبعه فيه مخيلة الإنسان المشغولة التي لا حد لها، بتنوع يكاد لا تكون له نهاية ؟! على هذا أجيب بكلمة واحدة: من التجربة، من ذلك تتأسس جميع معرفتنا، ومن ذلك تستمد ذاتها)(١٧).

ومع أن "جون لوك" يعد المؤسس الفعلي للمنهج الحسي إلا أنه لم يذهب به إلى نهاياته المنطقية، فقد أبقى على بعض المكونات التي لا تستقيم مع أصل فكرة منهجه، كالإقرار بوجود الخالق والإقرار بالمعرفة الحدسية وغيرها(١٨).

وأما الذي اطرد في مسلكه وانتهى بالمذهب الحسي إلى نهاياته المنطقية فهو الفيلسوف البريطاني "ديفيد هيوم" والذي يمثل واحدًا من أهم فلاسفة المدرسة الحسية، وفي وصفه يقول "برتراند رسل": (ديفيد هيوم أحد أهم الفلاسفة؛ لأنه وصل بفلسفة لوك وباركلي التجريبية إلى نتائجها المنطقية)(١٩)، فإنه أكد على أن المعرفة الإنسانية جميعها راجعة إلى المعطيات الحسية فقط، وأنه لا معرفة للإنسان تأتي من غير طريق الحس، وبعد أن قسم المعرفة الإنسانية إلى أفكار وانطباعات عن الأفكار طفق في إقامة الأدلة التي يرى فيها تأسيسا لمذهبه الحسي الغارق.

ويعد هيوم من أشد من غلا في النظرية الحسية حتى انتهى بها إلى الشك واللاأدرية المستحكمة، وقد تبنى المذهب الحسي بعد هيوم مذاهب وتيارات فلسفية عديدة، كالماركسية والوضعية والبرجماتية، فكل هذه المذاهب وغيرها تندرج ضمن المنهج الحسي وتسلك سبيله في بناء المعرفة الإنسانية.

المبحث الثالث: حقيقة الفلسفة الوضعية

الفلسفة الوضعية كما سبق هي فلسفة حسية مغالية، فلا تؤمن إلا بما تثبته العلوم التجريبية، وزعمت لأجل ذلك أن الفكر الإنساني عاجز عن إدراك ما سوى الظواهر الحسية، والوقائع التي تثبتها التجربة، وما بينها من علاقات، أو قوانين. وأهملوا لأجل ذلك كل بحثٍ في العلل والغايات.

وقد لخص جميل صليبا أهم ما تشتمل عليه الفلسفة الوضعية بقوله: (إن المعرفة الصحيحة هي المعرفة المبنيّة على الواقع والتجربة، وأن العلوم التجريبية هي التي تحقق المثل الأعلى لليقين، وإنّ الفكر البشري لا يستطيع أن يجتنب اللفظية والخطأ في العلم والفلسفة، إلا إذا اتصل بالتجربة، وأعرض عن كل قبلية، وأن الشيء في ذاته لا يدرك، وأن الفكر لا يستطيع أن يدرك إلّا العلاقات والقوانين)[٢٠].

والفلسفة الوضعية هي ترجمة عربية للفظة "Positivism" وقد اختلف في ترجمة عنوان هذه الفلسفة إلى عدد من العناوين، فخليل أحمد خليل مترجم موسوعة لالاند الفلسفية ترجمها "بالوضعانية"[٢١]، و"الوضعية"، و"الإيجابية"[٢٢]. أما يوسف كرم فترجمها في كتابه تاريخ الفلسفة الحديثة "بالواقعية"[٢٣]

لكن اللفظة الأكثر شهرة والأكثر تعبيراً عن هذه الفلسفة هي لفظة الوضعية، ولذا فقد أعرض أحمد الشيباني عن ترجمة هذا المصطلح "باليقينية" كما صرح قائلًا: (استعملنا كلمة وضعية، ولم نستعمل كلمة يقينية، وذلك لأن الكلمة الأولى أكثر تداولًا على الألسن)[٢٤].

وسميت هذه الفلسفة بالوضعية؛ لأنها تقصر المعرفة الإنسانية على تحليل وضع الأمور كما هي في عالم الواقع، وتنبذ كل ما عدا الأمور الحسية الواقعية[٢٥].

وقد ادعى رواد هذه الفلسفة سردية معينة للعقل البشري الإنساني، تنقل فيها من حالة إلى حالة حتى حطت البشرية رحالها في عصر العلوم التجريبية، والتي بلغت فيها البشرية حال النضج والذي يستوجب منها رد كل ما لا يمكن إثباته عن طريق تلك العلوم.

والحالات التي مر بها البشر في فكرهم ثلاث حالات هي:

الحالة الأولى "الحالة اللاهوتية ":

يرى " كونت " أن هذه الحالة كانت البشرية فيا تحاول التعرف على ما حولها. وكان العقل الإنساني يبحث عن كنه الأشياء، وحقيقة الظواهر، وكان يحاول إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى علة أو مبدأ مشترك. ويقرر "كونت " أن الإنسان في هذه الحالة اللاهوتية قد مر عبر ثلاث مراحل:

١- المرحلة الأولى "الفَتَشِيَّة": وهي درجة الإيمان بالأفتاش مفردها "فَتَش" والمقصود بها الأشياء التي كانت الشعوب البدائية تعتبر أن لها قدرةً سحرية، أو قدرةً غيبية غيرَ مدركة بالحواس، على حماية صاحبها، أو مساعدته. فهي كالأصنام والتمائم وغيرها مما يؤمن أصحابها بأن لها تأثيرات غيبية.

٢- المرحلة الثانية الاعتقاد بتعدّد الآلهة: وهي مرحلة تعدد الآلهة المفارقة أو الآلهة العلوية. ويزعم الفيلسوف أن الإنسانية في هذه المرحلة أخذت تسلب الحياة وقوة التأثير عن الظواهر الطبيعية التي كانت تؤلهها وترجع القوة المؤثرة في الوجود من حولها إلى كائنات علوية غير منظورة وهي كائنات متعددة بتعدد

شئون الحياة ؛ فإله للزرع وآخر للمطر وثالث للصيد وهكذا لكل شأن من شئون الحياة إله علوي غير منظور، حيث تعتقد بأن الظواهر الطبيعية تقف خلفها علل خفية مفارقة، لكن هذه العلل عبارة عن قِوى تحدث عنها هذه الآثار من غير إرادة منها واختيار، بخلاف طور "تعدد الآلهة" التي تعتقد البشرية في ضوئها وجود علل وأسباب خارجةً عن الكون ومفارقًة له، تُحدث هذه الآثار بإرادتها واختيارها.

٣- المرحلة الثالثة "التوحيد": ففي هذه المرحلة تطور الحال بالبشرية، وانتقلت من حالة تؤمن فيها بآلهة متعددة لتؤمن بإله واحد مفارقٍ لكل الظواهر المادية الطبيعية، هو من يُحدث هذه الظواهر المختلفة بإرادته وقدرته واختياره.

وزعمت الفلسفة الوضعية أن "الحالة اللاهوتية" ذاتُ خصائص نظريةٍ وعملية:

فمن خصائصها النظرية:

(١) أن موضوعها مطلق.

(٢) وأن تفسيراتها للظواهر الطبيعية فائقة.

(٣) وأن منهاجها خيالي.

أما خصائصها العملية فأهمها ما تشكله هذه الفلسفة من أساسٍ متين مُشتَرك للحياة الخلقية والاجتماعية في الاجتماع الإنساني، فالفلسفة الوضعية وإن كانت تتنكر للحالة اللاهوتية وترى فيها خرافة على المستوى المعرفي العلمي لكنها تعترف بفائدتها على المستوى العملي.

الحالة الثانية "الحالة الميتافيزيقية":

وهي الطور التالي للبشرية، وفيها تحولت البشرية من إحالة ظواهر الأشياء على علل أو علة مفارقة للطبيعة، لتجعل علل تلك الظواهر عِللاً ذاتيَّة توهَّمها موجودةً في باطن الأشياء الطبيعية، من وراء المنظور منها. وهذه العِلل هي في الحقيقة ليست أكثر من معانٍ مجرَّدةٍ جَسَّمها له الخيال، فقال العقل: "العِلّة الفاعلة – القوة الفاعلة – الجوهر – الماهية – النفس – الحرية – الغاية" ونحو ذلك. واندفع العقل بمقتضى هذا التصوّر إلى أن يعتقد بوجود قُوى متعدّدة في بواطن الأشياء، من وراء المشهود منها، بعدد أقسام الظواهر الطبيعيّة وطوائفها، مثل: "القوة الكيميائية – القوة الحيوية" ونحو ذلك.

ثمّ انتقل العقل من تعدّدية هذه القوى إلى توحيدها، في قوّة كليّة أوليَّة واحدة، هي "الطبيعة"، وزعمت الفلسفة الوضعية أن هذه "الحالة الميتافيزيقيّة" قد بلغت أوجَها في مذهب "وحدة الوجود" الذي يجمع في "الطبيعة" جميع قوى الميتافيزيقية.

ويرى الفيلسوف (كونت) أن مسيرة العقل الإنساني ومنهجه في هذه الحالة إنما هي ضرب آخر من أضرب الوهم والخيال، وأن ذلك ناتج عن أوهام الذات التي لا صله لها بالواقع.

ويلاحظ الفيلسوف أن هذه الحالة الميتافيزيقية شبيهة بالحالة اللاهوتية من حيث موقف العقل الإنساني منهما. حيث بدأ الإنسان يعتقد في التعدد ثم انتهى بالتوحيد مع اختلاف الموضوع في الحالة الميتافيزيقية عنه في الحالة اللاهوتية.

وتمثل هذه الحالة حالة سلبية على المستوى العملي، حيث تعرضت البشرية فيها للانحلال، وذلك بانتشار الشك والأنانية، وبلجوء الفرد إلى أن يُقَطِّع الروابط التي تربِطُهُ بالمجتمع الإنساني، وإلى أن يُثَقِّف عقله على حساب عاطفته، وأن يتصور الاجتماع البشريّ ناشئاً من التعاقد الاجتماعي الذي يكون بين الأفراد، وأن تقوم الدولة على مبدأ سلطة الشعب، وأن يحكمها القانون. وقد اعترف رواد المذهب الوضعي بأن هذه الحالة لا تصلح للمجتمع البشري، بل هي مفسدة له.

الحالة الثالثة "الحالة الوضعية":

وهي تمثل حالة الرشد البشري، والتي أدرك فيها الإنسان أنه ليس في مقدوره الحصول على معارف مطلقة، ولذا فيجب أن يقتصر دوره على الاهتمام بأن يَتَعرَّف على الظواهر الكونيّة، ويَبْحَث ليكتشف قوانين هذه الظواهر، ويُرَتِّبها من الخاص إلى العام.

فهذه الحالة تَحُلُّ الملاحظة للظواهر الكونية محلّ الخيال الذي كان في الحالة الأولى، ومحلّ الاستِدلالِ العقلي الذي كان في الحالة الثانية، لتكون التجربة هي موضع الاستدلال التي يتوصل بها إلى الحقائق. ليكون دور الإنسان هو التعرف على جواب "كيف؟" لا ليجيب عن سؤال: "لِمَ؟". فبحث الإنسان المعرفي إنما يدور في فلك: كيف حَدَثَتِ الظاهرة، مثل: كيف وجد الإنسان؟ لا البحث في سؤال: لِمَ حدثت الظاهرة؟ مثل: لِمَ وُجدَ الإنسان؟. وما هي الغاية التي وُجِد من أجلها؟ فإن مثل هذه الأسئلة ليس لها معنى أصلًا، فلا يمكن أن يتحصل فيها على جواب.

وبناء على ما تقدم فالحالة الوضعية تختلف عن الحالة اللاهوتية والحالة الميتافيزيقية في الموضوع، وفي التفسير، وفي المنهج.

وهذه الحالة هي التي أفلحت في تكوين العلم، وعلى هذا فيجب أن يحلَّ العلم محلّ الفلسفة، فكلّما أمكن أن تُعالج مسألة ما بالملاحظة والتجربة انتقلت هذه المسألة من الفلسفة إلى العلم، وبذلك يُعتبَرُ حلُّها حلاًّ نهائياً. وكل مسألة خارجة عن نطاق العلم ودوائر الملاحظة والتجربة فهي أمور غير قابلة للحل.

المبحث الرابع: تطور الفلسفة الوضعية

لم تستقر الفلسفة الوضعية على حالة واحدة، بل انبثقت عنها مدارس فلسفية تالية، قامت بتطوير الأفكار التي وضع ملامحها "أوجست كونت" لتظهر تشكلات فلسفية جديدة تشترك مع الوضعية في مغالاتها بالتجربة الحسية، والعلوم التجريبية، لكنها تختلف عنها إما من جهة الكيف، بإضافة رؤى فلسفية عليها، والتركيز على مناطق أغفلتها الفلسفة الوضعية، لتتشكل رؤية فلسفية ذات نمط جديد نسبيًا، "كالوضعية المنطقية"، أو تختلف قليلًا عن الفلسفة الوضعية من جهة الكم، بإبراز مزيد من المغالاة في قدرة العلوم التجريبية على الإجابة على تساؤلات البشر كلها، وإنكار كل مرجعية معرفية أخرى، ليتم عرض جميع أسئلة البشرية على هذا الإطار التجريبي وحده، حتى ما كان محسوبًا على الإطار الميتافيزيقي أو الغيبي أو المتجاوز، وما عجزت التجربة عن إجابته فإما أنه وضعية مؤقتة وسيكشف العلم عن وجه الجواب مستقبلًا، أو أن السؤال سخيف لا معنى له ليطلب له جواب أصلًا، وقد عرفت هذه النزعة الوضعية المغالية "بالنزعة العلموية".

ونستعرض في هذا الفصل على نحو مختصر أهم الأفكار التي يدور عليها كلا هذين الاتجاهين والذي وُلدا من رحم الفلسفة الوضعية، أعني:

- الوضعية المنطقية.
- النزعة العلمية.

أولاً: الوضعية المنطقية:

تيار الوضعية المنطقية هو الاسم الذي أطلقه "بلومبرج" و"فايجل" سنة ١٩٣١م على الحزمة الفلسفية الصادرة عن "جماعة فيينا"، وقد نشط أتباعها كثيرًا في نشر منهجهم التحليلي، وعرفت هذه الحركة بأسماء كثيرة، منها: التجريبية المنطقية، والوضعية الجديدة[٢٦].

وسميت بالمنطقية؛ لأنها قصرت اهتمامها على التحليل المنطقي للعبارات والألفاظ، (ومن ثَمَّ كان هذا الاسم "الوضعية المنطقية" مميّزًا لطائفة من أصحاب الفكر، صمَّموا على ألَّا يجاوزوا الواقع بنظرهم، وعلى أن يكون هذا الواقع الذي يختصون به هو اللغة، الذي يصوغ فيها سائر العلماء علومهم مع اختلاف موضوعاتها)[٢٧].

ومن أهم الركائز المنطقية التي قامت عليها الوضعية المنطقية: "مبدأ التحقق"؛ فقد جعله المناطقة الوضعيون معيارًا للعبارات الصائبة، وهو معتمدهم في التفريق بين ما له معنى من العبارات وما ليس له معنى منها، وترجع حقيقة هذا المبدأ إلى أن أي قضية لا يمكن أن يكون لها معنى إلا إذا أمكن التحقق منه تجريبيًا؛

فالقضية لا يمكن وصفُها بالصدق أو الكذب، إلا إذا كان معناها مما يمكن التحقق منه بالتجريب، وأي قضية لا يمكن التحقق من معناها عن طريق التجربة، فهي قضية فارغة من المضمون لا معنى لها.

يقول زكي نجيب محمود -رائد الوضعية المنطقية في العالم العربي- موضحًا حقيقة مبدأ التحقق: (معنى العبارة هو نفسه طريقة تحقيقها، فإذا لم نجد لتحقيقها طريقة كانت عبارة بغير معنى).

وبناء على هذا المبدأ الذي يربط بين صدق القضية وكذبها وبين إمكان التحقق من معناها، أنكر المناطقة الوضعيون كل القضايا الميتافيزيقية، وشنوا عليها حربًا شعواء؛ بحجة أنها عبارات لا تقبل الاختبار، ولا يمكن التحقق من معناها واكتشاف صدقها من كذبها، وحكموا عليها بأنها عبارات زائفة وفارغة، وفي هذا المعنى يقول زكي نجيب محمود: (معنى العبارة هو نفسه طريقة تحقيقها، فإذا لم نجد لتحقيقها طريقة، كانت عبارة بغير معنى، هذا هو مبدؤنا الذي نحذف على أساسه عبارات الميتافيزيقا كلها؛ لأننا نلتمس طريقة لتحقيق هذه العبارات فلا نجد).

ونتيجة لهذا المبدأ الذي قامت عليه الوضعية المنطقية بكل تياراتها، فإن موقفهم من الدين كان هو الإنكار الشديد، بل الهجوم الشرس والعنيف؛ فقد أعلنوا نقدهم لكل التصورات الغيبية والدينية، وحكموا عليها جميعًا بالبطلان والفراغ من المعنى والمضمون، وأكدوا على أن التمسك بها، هو في الحقيقة تمسكٌ بالجهل والغباء والخرافة.

وقد جاء في بيان مؤسسة الوضعية المنطقية التأكيد على هذا المعنى؛ إذ يقول البيان: (يقف ممثلو الفهم العلمي للعالم بحزم على أرض الخبرة البشرية البسيطة، وبثقة يعكفون على عملهم الذي يقوم على استبعاد الشوائب الميتافيزيقية، واللاهوتية المتراكمة منذ آلاف السنين)[٢٨].

ويقول "آير" -أحد أشهر أعلام الوضعية المنطقية-: (إنه لا توجد قضية إلا قضايا العلم الواقعي، وإنه باستطاعتنا أن نبرهن من خلال التحليل اللغوي على أن جميع القضايا الأخرى غير العلمية لا وجود لها، وأنها قضايا كاذبة، إن القضايا التي أشغلت الفلاسفة وعلماء اللاهوت والأخلاق فيما مضى؛ كقضايا: الله، والحرية، والروح، والغاية، والأخلاق.. إنما كان الغوص فيها هَدْرًا للوقت، ومضيعة للجهد. إن تلك القضايا المذكورة آنفًا، إما قضايا مغلوطة، أو ناشئة عن انعكاس انفعالي أو عاطفي لمشاعر الفرد؛ لذلك فإن الجدل حولها، أو البرهان عليها، أمر مجدب وعقيم)

وفي تأكيد هذا المعنى يقول "هنتر ميد"، بعد شرحه لموقف الوضعية من القضايا الميتافيزيقية: (هذا إذن حصيلة تحليل التجريب المنطقي لادِّعاءات الصحة في القضايا الميتافيزيقية، وهو إذ يبدأ بنظرية في القابلية

للتحقيق من حيث هي معيار للمعنى، يضطر منطقيًّا إلى رفض الميتافيزيقا واللاهوت، بوصفهما خاليتين من المعنى)[٢٩].

فلفظ "الله" عند الوضِعيين، لا يحمل أي معنى، وليس له أي مضمون، وإنما هو من الألفاظ الفارغة المضللة!! والمقتضى الضروري لذلك، أنهم لا يُقِرُّون بوجود موضوعي للخالق.

فإذا قلت: الله موجود؛ فإنك تكون قد صُغت قضية من النوع الذي يتعذَّر على الوضعيين تصنيفها كقضية تدخل في إطار العلم والمعرفة[٣٠].

ونتيجة لذلك، كانت الوضعية المنطقية مندرجة ضمن المذاهب والتيارات الإلحادية الصريحة، وهذا ما صرح به أحد كبار الوضعية المنطقية، وهو الفيلسوف كارناب؛ فقد حكم على كلمة "الله" بأنها كلمة ميتافيزيقية خالية من أي معنى[٣١]!!

وكذلك الحال في كل مكونات الأديان الغيبية؛ كالوحي، والرُّوح، والنفس، وأحداث اليوم الآخر وغيرها؛ فإنها محكوم عليها بالفراغ من المعنى، ومن ثَمّ انتفاء الوجود الحقيقي عنها، فكل الأديان هي عبارة عن تأملات ميتافيزيقية، لا وجود لها في الواقع، وإنما هي توهمات وخرافات[٣٢].

ثانياً: النزعة العلمية:

تمثل النزعة العلمية فلسفةً ماديةً محضة لا تؤمن إلا بها، ولا تؤمن إلا بما يمكن إثباته تجريبياً وفق المنهج العلمي. فأصحاب هذه النزعة يؤمنون بأن العلم والمعرفة لا سبيل إلى تحصيلها إلا عبر هذا السبيل، وأن العلوم التجريبية كافية في تأسيس كل الأنظمة الاجتماعية والسياسية والنفسية والأخلاقية التي تسيّر حياته، فليس للإنسان إذن إلا أحد خيارين: إما الإيمان بالعلوم الطبيعية التجريبية وما تفضي إليه من الحقائق، أو الوقوع في شَرَك الخرافة والجهل.

وقد زاد اتساع دائرة هذه الدعوى عند كثير من أتباعه، فنقلوها من الجانب المعرفي إلى الجانب الوجودي، فحكموا على كل أمر لا يدركه العلم بالبطلان وعدم الوجود، فقالوا: كل ما لا يدركه العلم ولا يمكن أن يدخل تحت التجربة فهو عدم. فلا محل مطلقًا لتفسير متجاوز للطبيعة، أو ميتافيزيقي.

تأمل قول أحد الداروينيين "سكوت تود" مثلًا وهو يكشف بصراحة ووضوح شديد عن هذه النظرة المغالية: (حتى لو كانت جميع المعطيات تشير إلى مصمم ذكي، فإن مثل هذه الفرضية يجب أن تكون مستبعدة من العلم؛ لأنها تمثل نظرة غير مادية).

هذه النظرة المغالية في إمكانيات العلوم الطبيعية التجريبية والمتحيزة بشكل فاضح لنظرة مادية ضيقة، تم الاصطلاح عليها في كثير من الدوائر العلمية والفلسفية بمصطلح "ساينتزم" "Scientism" وهو مصطلح

منحوت من كلمة "ساينس" أي علم تجريبي أو طبيعي، مضافًا إليها ما يدل على الطبيعة الأيديولوجية لهذا الإيمان الشديد بإمكانيات العلوم التجريبية وحصر مصدرية المعرفة فيها، بعد حصر فاعليتها في الإطار المادي وحده، وقد تُرجمت هذه اللفظة في الفضاء العربي بالعلموية.

وليس بخافٍ أن جزءًا من مبررات هذا الغلو يعود للمكتسبات والمنجزات العلمية والتقنية الهائلة التي تحققت بسبب المنهج العلمي -والذي أحدث تحولًا ضخمًا جدًّا في حياة البشر على كافة المستويات- بما لا يمكن قياسه، لكن المشكلة هي في هذا التعاطي التحقيري مع الموارد المعرفية الأخرى، ومحاولة حصر المجال المعرفي بتفاصيله وتعقيداته وتبايناته في هذا المورد وحده دون ما سواه.

وقد ابتدأ افتتان العقل الغربي بالعلم التجريبي في القرن السابع عشر، مع ظهور النظريات العلمية التي أثبتت خطأ ما كانت عليه الكنيسة من تصورات عن الكون والحياة، وصححت للناس تصوراتهم عن تلك الأمور، وكان التأثير الأكبر في ذلك الزمان لعلم الفلك مع نظريات جاليليو وكبلر، ثم تطور الافتتان بالعلم شيئا فشيئا مع تطور الاكتشافات العلمية وتوسعها.

وساعد على قوة افتتان العقول الغربية بالعلم ظهور نظريات علمية، وإخفاق التصورات الكنسية أمامها، فانكشف للناس مقدار الأخطاء العظيمة التي كانوا عليها جراء تسليمهم لما كانت تمليه عليهم الكنيسة، واستقر في أذهانهم بأنهم أمام مصدر معرفي جديد سينقذهم من الخرافة التي كانوا يعيشون فيها، ويخلصهم من الضلال الذي كان مخيما على حياتهم.

فأخذ العلم التجريبي يتوسع في انتشاره، وطفقت العقول الغربية تزداد به هيامًا، وباكتشافاته غرامًا، وبنتائجه تعلقًا وإعجابًا، حتى بلغ الغلو بأطياف منهم في العلم ونتائجه في القرن التاسع عشر مبلغًا عظيمًا، ونهاية غارقة في التمسك به والاعتماد عليه، فقد أصبح العلم المادي في القرن التاسع عشر الإله الجديد، وأضحى هذا القرن يلقب بعصر عبادة العلم، وأمسى رجال العلم التجريبي أنبياء العقول التقدمية ومنقذي الإنسانية من مصائرها المحزنة![٣٣].

وتشكلت في هذه المرحلة النزعة العلمية، وهو الاتجاه الذي يعتقد أصحابه أن العلم قادر على الإحاطة بكل الحقائق، وأنه قادر على تقديم الإجابات لكل مشاكل الحياة، وأنه يملك الحلول لجميع المعضلات التي تواجه العقل الإنساني[٣٤].

ويسميها الفيلسوف المعاصر "روجيه جارودي" بالأصولية العلمية، ويعرفها بأنها النزعة القائلة بأن العلم يمكنه حل المسائل كلها، وأن ما لا يمكن للعلم أن يقيسه ويختبره ويتوقعه هو شيء غير موجود[٣٥].

وفي تصوير الغلو في الاعتماد على العلم يقول "هانز": (الإفراط في الثقة بنتائج العلم لا يقتصر على الفيلسوف، وإنما أصبح سمة عامة للعصر الحديث، أي: الفترة التي تبدأ من عصر جاليليو إلى وقتنا الحالي، وهي الفترة التي خُلق فيها العلم الحديث، فالاعتقاد بأن لدى العالم الإجابة على كل سؤال -أي: بأن كل ما على المرء إذا كان في حاجة إلى معلومات فنية أو كان مريضا أو يعاني مشكلة ما هو أن يسأل العالم ليجد لديه الجواب- قد بلغ من الانتشار حدًا جعل العلم يضطلع بوظيفة اجتماعية كانت في الأصل للدين).

وقد عبر "إسماعيل مظهر" – مترجم كتاب "أصل الأنواع" في نسخته العربية الأولى – عن توصيف الحالة الغالية في تقديس العلم التجريبي أحسن تعبير، حيث يقول: (لم تشرق شمس القرن التاسع عشر حتى برز العلم من ثنايا الفكر الإنساني بمكتشفات راح ذوو العلم يبالغون في قيمتها مبالغة جرتهم إلى القول بأن مغاليق الوجود فتحت أمام العقل من طريق العلم، وأن الإنسان لا محالة دالف بقدمه يومًا إلى حدود المعرفة المطلقة التي استغلقت عليه القرون الطوال، وأنه سوف يصل إلى حل رموز الكون وأسرار الوجود في أقرب حين، وساد إذ ذاك الاعتقاد بأن ليس أمام الإنسان من طريق يوصله إلى ذلك سوى الركون إلى الطريقة العلمية، يستدر وحيها فتنفحه بما يحل معضلات الحياة وأسرارها. ولقد ظلت هذه الفكرة ذات أثر بيّن في كل ما أخرج الفكر خلال القرن التاسع عشر من منتجات، ولا تزال ذات أثر كبير في عقول بعض الباحثين في هذا العصر، إذ طالما يسمع طلاب الفلسفة ودارسو الدين بأن طريقتهم غير علمية، وأن ليس لشيء في العالم من حق في الوصول إلى ذلك المدى القصي من المعرفة سوى العلم)[٣٦].

ولم يقتصر تأثير العلم التجريبي وسطوته على مجال واحد من مجالات الحياة، وإنما شملت سطوته وتأثيره كل المجالات الحياتية، سواء الدينية منها أو الفلسفية أو الاجتماعية أو النفسية، فكل تلك المجالات لم تسلم من تأثير العلم عليها، وتكررت الدعوات تلو الدعوات، وارتفعت الأصوات صارخة، وتتابعت النداءات مدوية بضرورة تغيير كل ما كان الناس عليه، وتحتم نقده وبناءه من جديد على وفق ما تقتضيه الاكتشافات العلمية التجريبية، ووجوب صياغته وتشكيله على وجه يتوافق مع المعبود الجديد والمنقذ الأعظم.

الخاتمة:

يمكن أن نوضح أهم ما اشتمل عليه البحث من نتائج على النحو التالي:

١. أن المقصود بالفلسفة الوضعية هي المعرفة الحقيقية في مجال العلوم الاجتماعية، كما في العلوم الطبيعية، مستمدة من التجربة الحسية، والمعالجات المنطقية والرياضية لمثل هذه البيانات؛ والتي تعتمد على الظواهر

الطبيعية الحسية، وأيضاً يمكن تعريفها بالفلسفة التي اعتبرت أن وضع الأمور في عالم الواقع هو وحده مجال البحث الفلسفي.

٢. يعتبر أوجست كونت هو مؤسس الفلسفة الوضعية حيث يعد أحد أشهر الفلاسفة الفرنسيين، والذي عاش بين عامي "١٧٩٨م و١٨٥٧م". وقد كان كونت تلميذاً متميزًا في علوم الرياضيات، والتحق وهو بعمر السادسة عشرة بمدرسة الهندسة بباريس، لكنه لم يواصل دراسته فيها لظروف سياسية.

وقد عكف على دراسة كتب الفلسفة، معتمداً على قراءته الخاصة، وتأثر كثيرًا بأطروحات "هيوم" و"دي مستر" و"ديبونالد".

وقد كان له إنتاج غزير في المعرفة حيث نشر (أوجست كونت) عدداً من الكتب والدراسات عبر فيها عن تصوره لنهضة فرنسا وتخلصها من النظام الذي كان مسيطراً في العصور الوسطى وانتقالها إلى العصور الحديثة.

٣. يرى رواد الفلسفة الوضعية أن البشر مروا بثلاث حالات في تطورهم المعرفي هي:

أ- الحالة الأولى "الحالة اللاهوتية ".

ب- الحالة الثانية "الحالة الميتافيزيقية".

ج- الحالة الثالثة "الحالة الوضعية".

٤. تطورت الفلسفة الوضعية وتداخلت أحياناً مع بعض الفلسفات وظهر هناك اتجاهان في هذه الفلسفة، الأول: الوضعية المنطقية وتعني الحزمة الفلسفية الصادرة عن "جماعة فيينا"، وقد نشط أتباعها كثيرًا في نشر منهجهم التحليلي، وعرفت هذه الحركة بأسماء كثيرة، منها: التجريبية المنطقية، والوضعية الجديدة.

وسميت بالمنطقية؛ لأنها قصرت اهتمامها على التحليل المنطقي للعبارات والألفاظ، (ومن ثَمَّ كان هذا الاسم "الوضعية المنطقية" مميّزًا لطائفة من أصحاب الفكر، صمَّموا على ألَّا يجاوزوا الواقع بنظرهم، وعلى أن يكون هذا الواقع الذي يختصون به هو اللغة، الذي يصوغ فيها سائر العلماء علومهم مع اختلاف موضوعاتها).

والثاني: النزعة العلمية وتعني تلك الفلسفة المادية التي لا تؤمن إلا بما يمكن إثباته تجريبياً وفق المنهج العلمي. فأصحاب هذه النزعة يؤمنون بأن العلم والمعرفة لا سبيل إلى تحصيلها إلا عبر هذا السبيل، وأن العلوم التجريبية كافية في تأسيس كل الأنظمة الاجتماعية والسياسية والنفسية والأخلاقية التي تسيّر حياته، فليس للإنسان إذن إلا أحد خيارين: إما الإيمان بالعلوم الطبيعية التجريبية وما تفضي إليه من الحقائق، أو الوقوع في شَرَك الخرافة والجهل.

حيث نجد أن "اوجست كونت" وضع ثلاثة حلول للقضاء على هذه المشكلة الفكرية التي أبرزها في فلسفته، وهي في رأيه:

١- أن نوفق بين التفكير الوضعي والتفكير الديني الميتافيزيقي بحيث يوجدان معاً بدون تناقض.

٢- أن نجعل من المنهج الميتافيزيقي منهجاً عاماً شاملاً تخضع له جميع العقول والعلوم ونصرف النظر عما سواه.

٣- أن نعمم المنهج الوضعي فنجعل منه منهجاً كلياً عاماً يشمل جميع ظواهر الكون.

ثم ناقش هذه الحلول ليصل إلى تقرير حل واحد فقط، وكانت مناقشته كالتالي:

أن الوسيلة الأولى لا يمكن تحقيقها علمياً لأن المنهجين متناقضان تمام التناقض وتقدم أحدهما يستلزم ضرورة هدم الآخر.

أما الحل الثاني: وهو القضاء على الطريقة الوضعية وجعل الناس يفهمون الظواهر في ضوء الطريقة الدينية والميتافيزيقية فهذا الحل يتطلب ضرورة القضاء على الحقائق الوضعية التي حصلنا عليها.

وبناء على مناقشة اوجست كونت لهذه الحلول وتبين أن الحل الأول والثاني غير صالحين فقد قرر أنه لم يبقَ إلا الحل الثالث: وهو جعل التفكير الوضعي منهجاً كلياً عاماً ونقضي على ما بقي من مظاهر التفكير الميتافيزيقي.

ولو فرضنا أننا رجعنا بالمجتمع إلى ما كان عليه من قبل من حيث التفكير الديني الميتافيزيقي فهل نستطيع أن نحد من التفكير ونجعله يجمد على هذا الحال؟

وهل نستطيع أن نتحكم في القوانين الطبيعية التي حكمت على المراحل السابقة بالفساد، فنمنعها من أن تحدث النتيجة نفسها مرة أخرى؟

فكأننا نعيد الفوضى والجدل من جديد ونهدم المجتمع من حيث نريد له الاصلاح والتقدم.

وبهذا يتضح أن المذهب الوضعي هو مذهب إلحادي، لا يؤمن إلا بالمحسوسات وما ينتج عن التجارب، وكان في إحدى مراحله يؤمن بدور العقل في المعرفة في العصور الوسطى، وكان هدف الوضعيين هو مقارعة رجال الدين النصراني وإبطال مقالاتهم في الدين؛ بالدين الوضعي الجديد، أو دين الإنسانية.

لينتهي إلى تلك النتيجة المنطقية والحتمية وهي تعميم المنهج الوضعي الذي يقصي كل الاعتبارات اللاهوتية والميتافيزيقية، ويبقى على المنهج الوضعي وحده. وليس هناك حسب رأي كونت ما يحول دون تطبيق هذا الحل.

هوامش البحث:

(١) نظرية المعرفة، زكي نجيب محمود، مطابع وزارة الإرشاد القومي، ١٩٥٦م، ص (٥)

(٢) الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل، وجلال العشري، وعبد الرشيد صادق، مراجعة: زكى نجيب محمود، ص (٥٣٧).

(٣) رجب بو دبوس (١٤٢٥هـ)، تبسيط الفلسفة (الطبعة الأولى)، ليبيا- بنغازي: الدّار الجماهيريّة للنشر والتوزيع والإعلان، صفحة: ١٣.

(٤) Sahli Yacine (2011)، "تعريف الفلسفة"، overblog

(٥) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، (ج ٦ / ص ١١٧)

(٦) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبدالحميد، عالم الكتب، (١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م)، (ج ٣ / ص ٤٥٨)

(٧) الفلسفة الوضعية عند أوغست كونت، إلهام محمد فتحي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر، العدد السادس والثلاثون، (ص ٦٥٤).

(٨) مناهج البحث في العلوم السياسية، محمد محمود ربيع، مكتبة الفلاح، الكويت، (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، الطبعة الثانية، (ص ٩٨).

(٩) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد، عالم الكتب، (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م)، (٣ / ٤٥٨)

(١٠) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، غالب عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م)، (ص ١٩٣)

(١١) Auguste Comte and Positivism. John Stuart Mill. Loc 110. Kindle Edition.

(١٢) قصة الفلسفة. ويل ديورانت، ترجمة: أحمد الشيباني. الطبعة الثاني. دار القارئ العربي للنشر والتوزيع والإعلان. القاهرة – مصر. ١٤١٤هـ. ص(٤٠١). بتصرف

(١٣) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها – المجلد ٢ – الصفحة ٩٩٤ – جامع الكتب الإسلامية

(١٤)الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل، وجلال العشري، وعبد الرشيد صادق، مراجعة: زكى نجيب محمود. ص (٥٣٨).

(١٥)نشأة الفلسفة العلمية، هانز ريتشاخ، ترجمة: فؤاد زكريا. دار الوفاء لدنيا الطباعة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ص (٨٢-٨٤).

(١٦) تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م، (٣/١٧٨).

(١٧) المصدر السابق، (٣/١٧٨).

(١٨) المصدر السابق (٣/١٨١).

(١٩) المصدر السابق، (٣/٢٥٣).

(٢٠) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، (٢/٥٧٩).

(٢١) موسوعة لالاند الفلسفية، ص(١٠٠١).

(٢٢) موسوعة لالاند الفلسفية، ص(١٠٠٣).

(٢٣) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، مكتبة الدراسات الفلسفية، الطبعة الخامسة، ص(٣١٧).

(٢٤) قصة الفلسفة، ويل ديورانت، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي للنشر والتوزيع والإعلان، القاهرة – مصر، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ، ص(٤٠١).

(٢٥) نحو فلسفة علمية، زكي نجيب محمود، ص(٣٠).

(٢٦)الفلسفة المعاصرة في أوربا، بوشنسكي، ترجمة: عزت قربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٣هـ، ص(٩٣).

(٢٧)نحو فلسفة علمية. زكي نجيب محمود، ص(٣٠).

(٢٨) نهاية الوضعية المنطقية، رودولف كارناب، ملحق ترجمة بيان فيينا، وداد الحاج، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص(٢٧٧).

(٢٩) الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد، ترجمة: فؤاد زكريا، نهضة مصر، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م، ص(٣٥٦).

(٣٠) تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون، ترجمة: شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ص(٢٨٢).

(٣١) الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين، محمود رجب، دار المعارف، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م، ص(٢٤٠).

(٣٢) نحو فلسفة علمية، زكي نجيب (٢٤٨).

(٣٣) تاريخ الفكر الأوربي الحديث، رونالد، ترجمة احمد الشيباني، دار القاريء العربي، ص (٣٧٢، ٥٠٩).

(٣٤) المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار قباء، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م، ص(٤٦٩).

(٣٥) الأصوليات المعاصرة: أسبابها ومظاهرها، روجيه جارودي، ترجمة: خليل أحمد خليل، دار عام ألفين، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، ص (١١، ٢٤).

(٣٦) ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء وأثره في الانقلاب الفكري الحديث، إسماعيل مظهر، المطبعة العصرية، ص (١١٠).

المراجع والمصادر:

١. الأصوليات المعاصرة، أسبابها ومظاهرها، روجيه جارودي، ترجمة خليل احمد خليل، ط١، ١٩٩٢م.

٢. الفكر الأوربي الحديث، رونالد سترومبرج، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي.

٣. الفلسفة المعاصرة في أوربا، بوشنسكي، ترجمة: عزت قرني، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٤١٣هـ.
٤. الفلسفة الوضعية عند أوغست كونت، إلهام محمد فتحي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر، العدد (٣٦).
٥. الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد، ترجمة: فؤاد زكريا، نهضة مصر، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
٦. الميتافيزيقا عند الفلاسفة، محمود رجب، دار المعارف، ط٣، ١٩٨٧.
٧. الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة: فؤاد كامل، وجلال العشري، وعبد الرشيد صادق، مراجعة: زكى نجيب محمود، دار القلم، بيروت – لبنان.
٨. المدخل إلى الفلسفة، أزفلدكولبه، ترجمة: أبو العلا عفيفي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، الطبعة الخامسة، ١٩٦٥م.
٩. المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، غالب عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م).
١٠. المعجم الفلسفي، جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، بيروت – لبنان، ١٤١٤هـ.
١١. المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار قباء، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
١٢. معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عبد الحميد، عالم الكتب، (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م).
١٣. تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، مكتبة الدراسات الفلسفية، الطبعة الخامسة.
١٤. تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، ترجمة: زكي نجيب محمود، أحمد أمين، محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م.
١٥. تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء (٣)، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م.
١٦. تبسيط الفلسفة، رجب بو دبوس، الطبعة الأولى، ليبيا- بنغازي: الدّار الجماهيريّة للنشر والتوزيع والإعلان، ١٤٢٥هـ .
١٧. تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، ط١، ٢٠٠٢.
١٨. تعريف الفلسفة"، ياسين سهلي، " overblog، 2011.
١٩. قصة الفلسفة، ويل ديورانت، ترجمة: أحمد الشيباني، دار القارئ العربي للنشر والتوزيع، مصر – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.
٢٠. قصة الفلسفة. ويل ديورانت، ترجمة: أحمد الشيباني. الطبعة الثاني. دار القارئ العربي للنشر والتوزيع والإعلان. القاهرة – مصر. ١٤١٤هـ.
٢١. قصة الفلسفة. ويل ديورانت، ترجمة: أحمد الشيباني. الطبعة الثاني. دار القارئ العربي للنشر والتوزيع والإعلان. القاهرة – مصر. ١٤١٤هـ.
٢٢. معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار الفكر، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م).
٢٣. ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء وأثره في الانقلاب الفكري الحديث، إسماعيل مظهر، المطبعة العصرية.

٢٤. مناهج البحث في العلوم السياسية، محمد محمود ربيع، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

٢٥. موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت — لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

٢٦. موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه، ترجمة: خليل أحمد خليل، عويدات للنشر والطباعة، لبنان، بيروت، ٢٠١٢م.

٢٧. نحو فلسفة علمية، زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو، القاهرة — مصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٨م.

٢٨. نشأة الفلسفة العلمية، هاتر ريتشافي، ترجمة فؤاد زكريا، دار المعرفة للنشر

٢٩. نظرية المعرفة، زكي نجيب، مطابع وزارة الارشاد القومي، ١٩٥٦.

٣٠. نهاية الوضعية المنطقية، رودولف كارناب، ملحق ترجمة بيان فيينا، وداد الحاج، المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.